هل هناك فرق بين الدّيانة المسيحيّة وتعاليم السيّد المسيح؟

ظهرت بوادر ما يسمى اليوم بالدّيانة المسيحيّة كحركة إصلاحية للدّيانة اليهوديّة.

واتّصفت هذه الحركة التي أسّسها السيّد المسيح منذ بدايتها بتأصّلها في تعاليم الأنبياء الأوّلين. واتّبع (سلامه علينا) في تعليمه طريقة مشابهة لمعلّمين يهود آخرين، ولكنّ طريقته كانت مميّزة ومأثّرة. فأرشد عددا كبيرا من الأتباع وعلّمهم من التّوراة والزّبور وغيرهما من كتب الأنبياء الأوّلين، مشيراً إلى مقاصد الله الأولى من خلال كشفه لمقاصد تلك الكتب.

وأكّد سيّدنا عيسى على تعاليم التّوراة التي أقرّت بوحدانية الله (انظر مرقس 12: 29). كما أعلن (سلامه علينا) من خلال دعائه لله "أنَّ طريقَ الخُلودِ لا يكُونُ إلاّ مِنْ خلالِ معرفةِ ذاتِك جلَّ جلالُك أنت اللهُ الواحدُ الحقُّ، وعيسى المسيحُ الَّذِي أرْسَلْتَه." (انظر يوحنا 17: 3).

وعد عيسى (سلامه علينا)، قبل وفاته وانبعاثه وصعوده إلى السّماء، أن يساند أتباعه ويشدّ عزيمتهم بحلول روح الله فيهم، ليحملوا الرّسالة التي أعلنها أولاً وبشّر بها بني يعقوب. وكان الهدف من هذه الرّسالة تدشين مملكة الله الأبديّة، وعليهم أن يزفّوها بدءاً من القدس إلى "كلّ الأمم" (انظر لوقا 24: 47) وكان عليهم أيضا أن ينشروا الرّسالة إلى "أقاصي الأرضِ" (انظر سيرة الحواريين 1: 8).

وكانت معظم الأماكن التي يعرفها أتباع السيد المسيح في ذلك الوقت تحت سيطرة الإمبراطوريّة الرّومانية التي كانت تحكم حوض البحر الأبيض المتوسط. وكانت الثّقافة الإغريقية والرّومانية لهذه الإمبراطورية قويّة وذات نفوذ. وكان ينبغي على أتباع السيّد المسيح أن يراعوا في نشر الرّسالة كل حيثيّات الرّسالة باعتبارها ظهرت في المشرق، وهي متأثّرة بكتب الأنبياء الأوّلين، مكيّفين إيّاها مع العالم الرّوماني الإغريقي الوثني. وكان عليهم أيضا أن يستعملوا لغة المتقبّل هناك ومفاهيمه الثّقافية الوثنيّة مع اخلاصهم للمعاني الأصليّة التي أوحى الله بها ضمن بيئة يهوديّة. واستطاع الحواري بولس أن يفعل ذلك ولكن كلماته عادة ما يُساء فهمها وتُشوّه حتّى أثناء حياته (انظر رسالة بطرس الثّانية 3: 16).

وبما أنّ رسالة السيّد المسيح قد لاقت رواجا كبيرا بين الرّومان والإغريق، فقد اختار العديد من الناس أن يصبحوا من أتباعه (سلامه علينا). وفي سنة 300 للميلاد استطاعت الحركة التي أسّسها سيّدنا عيسى أن تستقطب عدداً كبيراً من مواطني الإمبراطوريّة الرّومانيّة.

أمّا سنة 312 للميلاد فقد ادّعى الإمبراطور الوثنيّ قسطنطين أنّه شاهد رؤيا من الله يأمره فيها أن يحارب في معركة قادمة مع نظيره ماكسينتيوس من أجل عرش الإمبراطوريّة الرّومانية تحت راية الصّليب.

وانتصر قسطنطين في المعركة وآمن دون شكّ أنّ إله المسيحيين هو الذي نصره، وهكذا جعل المسيحية ديانة شرعيّة بعد أن كانت محظورة. وبعد عدّة سنوات جاء اعلان ينصّ على أنّ المسيحيّة هي الدّيانة الرّسميّة للإمبراطوريّة الرّومانيّة.

وعندما أصبحت المسيحيّة ديانة الدّولة، حصلت الكنيسة للمرّة الأولى على قوّة السّيف، أي على القوّة العسكريّة للدّولة، وهكذا أصبحت الأقليّة التي كانت مُضطهَدة أغلبيّة تضطهِد الآخرين الآن. فالدّولة ديانتها انتصارية تهتمّ بالقوّة وبالانتصارات الدّنيويّة أكثر من اهتمامها بالوفاء إلى ما جاء في رسالة السيد المسيح بشأن المملكة الربّانيّة. ورفض أفراد هذه الجماعة في البداية السّلطة الدنيويّة، لكنّهم في زمن قسطنطين صاروا أكثر حرصا على التمسّك بها. وهؤلاء الذين طمحوا سابقا إلى خدمة الآخرين على منوال السيّد المسيح (سلامه علينا)، أرادوا الآن في زمن قسطنطين التسلّط على الناس، وكانوا سابقا يحبّون عدوّهم، لكنّهم الآن يسعون إلى هزيمته بالسّيف.

أراد قسطنطين أن تخدم الكنيسة مصالح الإمبراطوريّة الرّومانية، ولكي يحصل ذلك احتاج إلى تنظيمها وتسيسها، فبدأ بتحويل القاعات الحكومّية على طول الإمبراطوريّة إلى كنائس مسيحيّة، وأصبح الكرسيّ الذي كان يستعمله قضاة المدينة كرسيّا للأسقف، وقبل هذا كان أتباع السيّد المسيح يجتمعون في بيوت المؤمنين المتواضعة، ولم يكن لديهم بنايات مخصّصة للعبادة.

وقبل عهد قسطنطين كان لكلّ واحد من قادة المؤمنين مهنة خاصّة، وكان لديهم أيضا دعم من خلال تبرّعات المؤمنين وهداياهم، ولكن الحكومة شرعت بعد حكم قسطنطين في تقديم رواتب لرجال الدّين وأعفتهم من دفع الضّرائب، كما فعل الأباطرة من أجل الكهنة الوثنيّين في الماضي. وقسطنطين هو من وضع نظاماً لرجال الدّين في الكنيسة على تسلسل هرمي بما يتناسب مع غاية الإمبراطوريّة. وسمح للكهنة بارتداء الزّي الرّسمي للموظّفين الرّومانيين، وهي ملابس أصبحت تُعرف فيما بعد بثوب الكاهن. وأسّس بعد ذلك جوقات في الكنائس، حيث أراد من الكنيسة أن تحاكي بموسيقاها الرّسمية الموسيقى المستعملة في مراسم دولة الإمبراطوريّة الرّومانية.

وفي القرنين الأوّل والثاني للميلاد كان أتباع السيّد المسيح يحتفلون بإقامة وليمة احتفالاً بذكرى مولاهم عيسى (سلامه علينا)، الذي علمهم هذه العادة، فكانوا يتناولون الخبز والكأس في إطار مأدبة بهيجة تدعى "مأدبة الحبّ الأخويّ". ومع مرور الوقت أصبح النّاس يتقاسمون الخبز والكأس بشكل منفصل عن الوجبة. ومع نهاية القرن الثّاني أصبح هذا الفصل عادة مألوفة بينهم. وبعد عهد قسطنطين منعت سلطة الكنيسة تقاسُم الخبز والكأس في المأدبة التذكارية (أي ما يعرف بالعشاء الرّباني)، وسمحت بتقاسم الخبز والكأس فقط في

شعائر خاصّة. وعندما استُبدلت المأدبة التذكاريّة بطقس ديني، كانت الطّاولة حيث يوضع الخبز والشّراب توصف على أنّها المذبح حيث تقّدم الأضحيّة. وأصبحت المأدبة التذكاريّة شعيرة سلكها القساوسة ولم تعد تجمّعا بهيجا للمجتمعين على المائدة. وتبعاً للطّقوس الوثنيّة فإنّ الخبز والكأس يُنظر إليهما على أنّهما مادّتين مقدّستين، شأن كلمات الكاهن التي أُعتبرت ذات قوّة خارقة.

وحصلت تغييراتٌ عقائديّة، فأصبح اهتمام المؤمنين بمصير الفرد ومكان الرّوح في الآخرة. واختلف هذا الاهتمام عن تأكيد الأنبياء والرّسل الذين تحدّثوا عن قدرة الله في خلق عالم جديد، كجزء من خلق الله الجديد للبشريّة واستعادة الكون المُدَمَّر. ودعا سيّدنا عيسى (سلامه علينا) وحواريّوه النّاس إلى التّوبة والإيمان والأعمال الصّالحة، ولكنّ الكنيسة أصبحت في زمن قسطنطين واسطة للنّجاة من خلال الشّعائر التي تقيمها، وقد اعتبرها النّاس فعّالة للنّجاة فلا حاجة إذن للإيمان والتوبة.

شعر قسطنطين أنّ إمبراطوريته ستكون أكثر استقراراً في حال وجود مذهب رسميّ وحيد للمسيحيّة، ولذلك عمل سنة 316 للميلاد كقاض في فضّ نزاع قام في شمال إفريقيا حول حركة الدّوناتيين. وبعد أن حسم قسطنطين أمره تجاه الدّوناتيين، قاد جيشا من المسيحيين ضدّ المسيحيّين الدّوناتيين. وبعد 300 سنة من اللاّعنف كانت هذه أوّل حركة اضطهاد يمارسها مسيحيون ضدّ مسيحيين. وأخيراً قضت القوى الرّومانية على حركة الدوناتيين في شمال إفريقيا.

إن الله هو الرّحيم اللّطيف الأوحد، وقد وردت صفاته في كتب الأنبياء الأوّلين. وأخذ عامّة النّاس يفهمون الله والأمور الدّينية شيئا فشيئا بالطّريقة التي فهموا بها الآلهة الرّومانية اليونانيّة التي تستوجب تهدئة غضبها. والأضاحي التي نصّت عليها التوراة كانت تؤوّل على أنّها محاولات لتهدئة غضب الله القويّ الجبّار عوضاً عن معنى التقرّب من الله الكريم الرّحيم.

ادّعى المصلحون البروتستانتيون في القرن السّادس عشر للميلاد، أنّ تعاليم الكنيسة الرّومانية (الكاثوليكية) حرّفتها "الأخطاء الإغريقيّة"، وحاول هؤلاء المصلحون تصحيح هذه الأخطاء، ولكنّهم لا يزالون وبشكل كبير تحت تأثير فرضيّات غير قابلة للجدل وخاصّة منها ما يتعلّق بالنّظام الذي أسّسه قسطنطين.

لم يكن الإمبراطور قسطنطين مسيحيّا في أغلب حياته، بل لم يتمّ تعميده حتّى آخر لحظة في حياته، ورغم ذلك فقد ادّعى أنّه الحواري الثّالث عشر للسيّد المسيح. وفعلا فقد أحدث قسطنطين تغييرات تمسّ من جوهر رسالة السيّد المسيح. ثمّ إنّ الدّين الذي أسّسه قسطنطين يختلف تماماً عن ممارسات الحواريّين، كما كان له تأثير كبير على الممارسات المسيحيّة التي نراها اليوم. وتوجد بين المسيحيّين عدّة ممارسات دينيّة

معاصرة وتأويلات ليست سيّئة بالضّرورة، ومصدرها ليس سيّدنا عيسى (سلامه علينا) أو الحواريّين. ورغم ذلك يوجد العديد من النّاس اليوم الذين يعودون إلى كتابات الأنبياء الأوّلين وإنجيل سيّدنا عيسى، للبحث عن الطّريقة التي نادى بها سيّدنا المسيح للاقتداء بها، ساعين إلى الالتحاق بمن سبقهم إلى المملكة الربّانيّة، ولكن بطرق تختلف إلى حدٍّ بعيد عن الدّين الذي أسّسه قسطنطين.